وقفات وهدايات في قوله تعالى:

﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا ١٢﴾ [مريم :١٢]

د/ نبيلة بنت حسن بن محمد بن عبد الله التركي(*)

المستخلص

هذا بحثٌ بعنوان: وقفات وهدايات في قوله تعالى: ﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا ١٢﴾ [مريم: ١٢]، يهدف إلى بيان المعاني الواردة في الآية الكريمة، وأقوال المفسرين فيها، والكشف عن الهدايات والدلالات المستنبطة منها، ويركز البحث على إبراز ما تحمله الآية من معانٍ رفيعة، وما ترسمه من استنباطاتٍ تربوية وإيمانية؛ إذ تُمثّل قاعدة قرآنية في كيفية تلقي الوحي والتعامل معه، وأخذه بقوةٍ وجد واجتهاد وبعزيمة وثبات، كما تظهر الآية منهج القرآن في إعداد القادة والأنبياء، وفيها دعوة للمربين والمعلمين والمتعلمين إلى أخذ الكتاب بقوة، كما تلقاه النبي ﷺ عن ربه، وتلقاه عنه السلف الصالح رضوان الله عليهم، مما يمنحها أبعادًا تتجاوز خصوص يحيى عليه السلام لتشمل كل مكلّف، وفي هذا دعوةٌ للالتزام بمنهج القرآن الكريم وتعاليمه، والعناية بطلب العلم الشرعي، وترسيخ معاني الجد والاجتهاد والحرص والمواظبة والعزم والحزم، وغيرها من المعاني التي حوتها الآية وبرزت من خلال تجلية معنى الأخذ للكتاب بقوة، وأثر ذلك في بناء شخصية المؤمن.

وقد سلكت في هذا البحث المنهجَ التحليلي الوصفي والاستنباطي.

الكلمات المفتاحية: التدبر، تفسير القرآن، القيم الإيمانية، إعداد القادة.

(*) الأستاذ المشارك في قسم الشريعة والدراسات الإسلاميّة، الكلية الجامعيّة بالقنفذة – جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية.

nhturki@uqu.edu.sa

Abstract

This study is entitled "Reflections and Guidance in the Words of Allah, the Exalted: [Maryam: 12]." It aims to elucidate the meanings contained in the noble verse, present the interpretations of various commentators, and uncover the guidance and implications derived from it. The study focuses on highlighting the profound meanings of the verse and the educational and spiritual inferences it draws. It serves as a Qur'anic principle regarding how revelation is received and engaged with, emphasizing the approach of embracing it with strength, sincerity, diligence, determination, and steadfastness.

The verse also illustrates the Qur'an's methodology in preparing leaders and prophets. It calls upon educators, teachers, and learners to grasp the Book with vigor, as the Prophet (Peace be upon him) received it from his Lord and as it was preserved by the righteous predecessors, may Allah be pleased with them. This lends the verse dimensions that transcend the specific case of Yahya (Peace be upon him) to encompass every accountable individual. It thus serves as an invitation to adhere to the Qur'anic methodology and its teachings, to diligently pursue Islamic knowledge, and to instill values such as seriousness, effort, dedication, perseverance, determination, and decisiveness, among other meanings contained in the verse. and highlighted through the emphasis on holding fast to the Book and its impact on shaping the character of the believer.

The study employs an analytical, descriptive, and inferential methodology.

Keywords: *"reflection, Qur'anic exegesis, spiritual values, leadership preparation".*







المقدمة

الحمد لله الذي أنزل القرآن هداية للناس، وبيانات من الهدى والفرقان، وجعل تدبر آياته سبيلًا إلى الهداية والرشاد، والصلاة السلام على خير العباد محمد ﷺ وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرًا، أما بعد:

فإن القرآن الكريم كتاب هدية أنزله الله على العباد، ودعاهم إلى هدايته ونوره، ليخرجهم به من الظلمات إلى النور، ويُحيي به الأرواح، فالقرآن غذاء للروح كما أن الطعام غذاء للأبدان، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾ [الشورى: ٥٢]، «فسماه روحًا لما يحصل به من الحياة الطيبة، والعلم والقوة، وجعله نورًا لما يحصل به من الإشراق والإضاءة، وهما متلازمان، فحيث وجدت هذه الحياة بهذا الروح وجدت الإضاءة والاستنارة، وحيث وجدت الاستنارة والإضاءة وجدت الحياة، فمن لم يقبل قلبه هذا الروح فهو ميت مظلم، كما أن من فارق بدنه روح الحياة فهو هالك مضمحل»(١).

وقد أمر الله تعالى عباده بتدبر كتابه وحث على تفهمه والنظر في معانيه، ولا شك في أن باب التدبر عظيم، فهو ليس بابًا للقول في القرآن بالتشهي بدون علم وصحة فهم، قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ [ص:٢٩]، «{ليدبروا آياته} أي: هذه الحكمة من إنزاله، ليتدبر الناس آياته، فيستخرجوا علمها ويتأملوا أسرارها وحكمها، فإنه بالتدبر فيه والتأمل لمعانيه، وإعادة الفكر فيها مرة بعد مرة، تدرك بركته وخيره»(٢).

وقد تأملت آية من كتاب الله تعالى فألفيتها جامعة لوقفات عظيمة وهدايات شتى مستمدة من معانيها التي ذكرها المفسرون فيها، هذا مع قصرها ووجازة كلماتها وهي قوله

(١) التفسير القيم لابن القيم، ص ٤٧٠.

(٢) تيسير الكريم الرحمن للسعدي، ص ٧١٢.





تعالى: ﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا ١٢﴾ [مريم: ١٢]، فاستوقفتني معانيها ومقاصدها، وهدايتها ودلائلها، ومن هنا جاءت هذا البحث ليسلط الضوء على أهمية أخذ الكتاب بقوة.

أهمية البحث:

١. الوقوف على معاني "القوة" في تلقي الوحي والعمل به.

٢. أهمية الوقوف مع هذه الآية لاستنباط الدروس والهدايات.

٣. تعزيز القيم التربوية والعملية المستنبطة من حياة الأنبياء عليهم السلام.

٤. إبراز أهمية المبادرة بالعلم والعمل منذ الصغر.

٥. الربط بين المفهوم القرآني" الأخذ بقوة" ومتطلبات الواقع التربوي المعاصر.

مشكلة البحث:

يتضمن قوله تعالى: ﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا ١٢﴾ [مريم: ١٢] خطابًا ربانيًّا موجّهًا إلى أحد أنبياء الله وهو يحيى عليه السلام، ويحمل توجيهًا عظيمًا وأمرًا جليلًا بأخذ الوحي الإلهي بجد واجتهاد. وتكمن المشكلة في أن هذه الآية رغم غزارة دلالاتها التربوية والإيمانية، لم تُدرس –بحسب الاطلاع– دراسة مستقلة تستنبط منها الهدايات التربويّة والوقفات التدبريّة، بل غالبًا ما تُعرض ضمن سياق التفسير العام دون تأمل خاص في معانيها الإيمانية والتربوية، ومن هنا تنبع مشكلة البحث في التساؤل الآتي:

١. ما دلالة الأخذ بقوة في السياق القرآني في قوله تعالى: ﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ﴾؟

٢. ما أبرز الوقفات والهدايات المستنبطة من قوله تعالى: ﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ﴾؟ وما أثرها في بناء الشخصية الإيمانية المتوازنة؟

٣. كيف يمكن تفعيل هذه الهدايات في الواقع التربوي والإيماني اليوم؟





أهداف البحث:

١. بيان المعاني الواردة في الآية.

٢. استنباط الوقفات الإيمانية والتربوية من الآية.

٣. إبراز الأثر العملي للأخذ بالوحي بقوة في حياة الفرد والمجتمع.

٤. المساهمة في إثراء الدراسات التدبرية.

منهج البحث:

اتبعت في دراستي لهذه الآية المنهج الوصفي التحليلي في بيان معاني الآيات وتفسيرها، والمنهج الاستنباطي في استخراج الهدايات والدلالات المستفادة منها.

إجراءات البحث:

١. رجعت إلى عدد من كتب التفسير لبيان معنى الآية والتعرف على موضوعاتها، واجتهدت في استخراج شيء من كنوزها وهداياتها.

٢. توثيق النصوص المنقولة من مصادرها.

٣. كتابة الآيات بالخط العثماني.

حدود البحث:

تناول البحث دراسة الآية الثانية عشر من سورة مريم وهي قوله تعالى: ﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا ١٢﴾، وبيان معانيها وإبراز موضوعاتها، والكشف عن هدايتها ودلائلها.

الدراسات السابقة:

هناك كثير من الرسائل والبحوث التي تناولت سورة مريم من زوايا متعددة: (لغوية، بلاغية، تفسيرية، تربوية، عقديّة)، إلا أنني -في حدود اطّلاعي- لم أقف على دراسة





مستقلة للوقفات والهدايات في قوله تعالى: ﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا ١٢﴾ [مريم :١٢].

وهناك رسالة بعنوان: الهدايات القرآنيّة في سورة مريم – دراسة تطبيقية: لنوره بنت عبد العزيز المانع، رسالة دكتوراة، جامعة القصيم، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، عام ١٤٤٢هـ، وتتلخص هذه الرسالة في دراسة الحزب (٣١) من الجزء السادس عشر من القرآن الكريم، بإفراد الهدايات القرآنيّة في سورة مريم ضمن مشروع الموسوعة العالمية للهدايات القرآنيّة، فقد قامت الباحثة بدراسة نوعيّة للسورة كاملة واستخراج الاستنباطات منها، ولم تستطرد في ذكر معاني الآية الثانية عشرة في سورة مريم التي أنا بصدد دراستها، وإنما استخرجت (٢٣) من الهدايات في الآية.

والإضافة التي يقدمها هذا البحث هي: دراسة الآية الثانية عشرة من سورة مريم دراسة مستقلة من خلال تفسيرها تفسيرًا إجماليًّا، ثم الرجوع إلى أقوال المفسرين فيها وبيان معانيها، وتجزئة موضوعاتها إلى مطالب، وذلك من خلال الوقوف على هذه الموضوعات المستخرجة من معانيها التي ذكرها المفسرين في الآية، ثم استنباط ما فيها من وقفات ودلالات وهدايات قرآنية، والربط بين المفهوم القرآني للآية ومتطلبات الواقع التربوي المعاصر.

خطة البحث:

المقدمة: وتشتمل على: أهمية البحث، ومشكلته، وأهدافه، ومنهج البحث، وحدوده، والدراسات السابقة.

التمهيد: تعريف الهدايات القرآنية.

المبحث الأول: بيان معنى الآية، ومناسبتها لما قبلها وما بعدها من آيات، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: المعنى الإجمالي للآية.

المطلب الثاني: مناسبة الآية لما قبلها وما بعدها من آيات.

المبحث الثاني: الموضوعات في الآية، والهدايات المستنبطة منها، وفيه أربعة مطالب:

المطلب الأول: دلالة "القوة" واستعمالها في الآية.

المطلب الثاني: أخذ الكتاب بجد واجتهاد، والهدايات المستنبطة من هذا المعنى.

المطلب الثالث: أخذ الكتاب بعزيمة وثبات، والهدايات المستنبطة من هذا المعنى.

المطلب الرابع: معنى قوله تعالى﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴾، والهدايات المستنبطة من معنى الآية.

الخاتمة والتوصيات، ثم فهرس المراجع.





التمهيد: تعريف الهدايات القرآنية

تعريف الهداية في اللغة:

الهُدَى: نقيض الضَّلَالَة. وَيُقَال: هُدِيَ فاهْتَدَى[١]. وقَوْلُهُمْ: هَدَيْتُهُ الطَّرِيقَ هِدَايَةً، أَيْ تَقَدَّمْتُهُ لِأُرْشِدَهُ. وَكُلُّ مُتَقَدِّمٍ لِذَلِكَ هَادٍ[٢]. و(الْهُدَى) الرَّشَادُ وَالدَّلَالَةُ يُذَكَّرُ وَيُؤَنَّثُ. يُقَالُ: (هَدَاهُ) اللَّهُ لِلدِّينِ يَهْدِيهِ (هُدًى). وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَهۡدِ﴾ [السجدة: ٢٦] قال أبو عمرو بن العلاء: مَعْنَاهُ أَوَلَمْ يُبَيِّنْ لَهُمْ. وَ(هَدَيْتُهُ) الطَّرِيقَ وَالْبَيْتَ (هِدَايَةً) عَرَّفْتُهُ هَذِهِ لُغَةُ أَهْلِ الْحِجَازِ. وَغَيْرُهُمْ يَقُولُ: هَدَيْتُهُ إِلَى الطَّرِيقِ وَإِلَى الدَّارِ[٣].

والهداية دلالة بلطف[٤]. والهداية: الدلالة على ما يوصل إلى المطلوب، وقد يقال: هي سلوك طريق يوصل إلى المطلوب[٥].

الهداية في الاصطلاح:

يقول ابن عاشور: «الهداية في اصطلاح الشرع حين تسند إلى الله تعالى هي الدلالة على ما يرضي الله من فعل الخير ويقابلها الضلالة وهي التغرير»[٦].

وقد ذكر الشنقيطي عند تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ﴾ [الإسراء:٩]: «أن هذا القرآن العظيم الذي هو أعظم الكتب السماوية، وأجمعها لجميع العلوم، وآخرها عهدًا برب العالمين جل وعلا: يهدي للتي هي أقوم، أي: الطريقة التي هي أسد وأعدل وأصوب... وهذه الآية الكريمة أجمل الله جل وعلا فيها جميع ما في القرآن من الهدي إلى خير الطرق وأعدلها وأصوبها، فلو تتبعنا تفصيلها على وجه الكمال

---

(١) تهذيب اللغة للأزهري (٦/ ٢٠١).

(٢) مقاييس اللغة لابن فارس، ص ٩٣٣، مادة (هدي).

(٣) مختار الصحاح للرازي، ص٣٢٥، مادة (هـ د ي).

(٤) المفردات للراغب الأصفهاني، ص ٨٣٥.

(٥) التعريفات للجرجاني، ص ٢٥٦.

(٦) التحرير والتنوير (١/ ١٨٨).





لأتينا على جميع القرآن العظيم؛ لشمولها لجميع ما فيه من الهدى إلى خير الدنيا والآخرة».

ويمكن أن نستنبط من الهدايات التي ذكرها مدلولًا للهدايات القرآنية بأنها: الدلالات المستخرجة من القرآن الكريم التي ترشد الإنسان إلى أكمل العقائد، وأعدل الشرائع، وأقوم الأخلاق، وأصوب المناهج التي تصلحه في دنياه وأخراه، وتحقق له السعادة في الدنيا والآخرة، بحيث لا يوجد طريق أقوم من الطريق الذي يهدي إليه القرآن.

المبحث الأول: بيان معنى الآية ومناسبتها لما قبلها وما بعدها من آيات

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: المعنى الإجمالي للآية

قال تعالى: ﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا ١٢﴾ [مريم :١٢]، يقول ربنا سبحانه وتعالى لنبيه يحيى عليه السلام: ﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ﴾، فلما وصل عليه السلام إلى حالة يَفهم فيها الخطاب أمره الله أن يأخذ الكتاب بقوة، وقد ذُكر من معاني "القوة" هنا: العلم به، والحفظ له والعمل به؛ بأن يعمل ما أمره الله به ويجانب فيه ما نهاه الله، وأن يأخذ الكتاب بجد ومواظبة وحرص واجتهاد وغير ذلك.

وعامة المفسرين على أن المراد بالكتاب هنا: التوراة [١]، وهذا الذي اختاره المحققون من المفسرين.

يقول ابن كثير: «وأن الله علمه الكتاب، وهو التوراة التي كانوا يتدارسونها بينهم، ويحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار»[٢]. ويحتمل أن يكون كتابًا مختصًّا به[٣]، وقيل: هو اسم جنس يشمل الكتب المقدمة، وقيل: هو صحف إبراهيم، والأظهر قول الجمهور: إنه التوراة[٤].

قال الشوكاني رحمه الله: «والمراد بالكتاب التوراة لأنه المعهود حينئذ، ويحتمل أن يكون كتابا مختصًّا به وإن كنا لا نعرفه الآن، والمراد بالأخذ إما الأخذ الحسي أو الأخذ من حيث المعنى، وهو القيام بما فيه كما ينبغي، وذلك بتحصيل ملكة تقتضي سهولة الإقدام على المأمور به، والإحجام عن المنهي عنه، ثم أكده بقوله: {بقوة} أي: بجد وعزيمة

---

(١) انظر: مقاتل بن سليمان (٢/ ٦٢٢)، جامع البيان لابن جرير (١٥/ ٤٧٣)، المحرر الوجيز لابن عطية (٧/٤)، زاد المسير لابن الجوزي (٣/ ١٢١)، الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٨٣/١١)، التحرير والتنوير لابن عاشور (١٦/ ٧٥).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٢١٦).

(٣) انظر: البحر المحيط لأبي حيان (٢٤٥/٧)، فتح القدير للشوكاني (٤٠٣/٣).

(٤) أضواء البيان للشنقيطي (٤/ ١٧٤).





واجتهاد، {وآتيناه الحكم صبيا } المراد بالحكم الحكمة، وهي الفهم للكتاب الذي أمر بأخذه وفهم الأحكام الدينية، وقيل: هي العلم وحفظه والعمل به، وقيل: النبوة، وقيل: العقل، ولا مانع من أن يكون الحكم صالحا لحمله على جميع ما ذكر»[1].

وقال السعدي رحمه الله: «دل الكلام السابق على ولادة يحيى، وشبابه، وتربيته، فلما وصل إلى حالة يفهم فيها الخطاب أمره الله أن يأخذ الكتاب بقوة، أي: بجد واجتهاد، وذلك بالاجتهاد في حفظ ألفاظه، وفهم معانيه، والعمل بأوامره ونواهيه، هذا تمام أخذ الكتاب بقوة، فامتثل أمر ربه، وأقبل على الكتاب، فحفظه وفهمه، وجعل الله فيه من الذكاء والفطنة، ما لا يوجد في غيره ولهذا قال: {وآتيناه الحكم صبيا} أي: معرفة أحكام الله والحكم بها، وهو في حال صغره وصباه»[2].

المطلب الثاني: مناسبة الآية لما قبلها وما بعدها من آيات

جاء في سياق الآيات السابقة على لسان زكريا عليه السلام في قوله تعالى : ﴿وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِى﴾ [مريم: ٥] أي: وإني خفت من يتولى على بني إسرائيل من بعد موتي أن لا يقوموا بدينك حق القيام، ولا يدعوا عبادك إليك، وظاهر هذا أنه لم ير فيهم أحدًا فيه لياقة للإمامة في الدين، وهذا فيه شفقة زكريا عليه السلام ونصحه، وأن طلبه للولد ليس كطلب غيره، قصده مجرد المصلحة الدنيوية، وإنما قصده مصلحة الدين، والخوف من ضياعه، ورأى غيره غير صالح لذلك، وكان بيته من البيوت المشهورة في الدين، ومعدن الرسالة، ومظنة للخير، فدعا الله أن يرزقه ولدًا، يقوم بالدين من بعده، واشتكى أن امرأته عاقر، أي ليست تلد أصلًا، وأنه قد بلغ من الكبر عتيًّا، أي: عمرًا يندر معه وجود الشهوة والولد، ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾ [مريم: ٥]، وهذه الولاية، ولاية الدين، وميراث النبوة والعلم والعمل، ولهذا قال: ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۝٦﴾ [مريم: ٦]، أي: عبدًا صالحًا ترضاه وتحببه إلى عبادك، والحاصل أنه سأل الله ولدًا، ذكرًا، صالحًا،

---

[1] فتح القدير (٣/٤٠٣).

[2] تيسير الكريم الرحمن، ص ٤٩٠.

يبقى بعد موته، ويكون وليًّا من بعده، ويكون نبيًّا مرضيًّا عند الله وعند خلقه، وهذا أفضل ما يكون من الأولاد، ومن رحمة الله بعبده، أن يرزقه ولدًا صالحًا، جامعًا لمكارم الأخلاق ومحامد الشيم، فرحمه ربه واستجاب دعوته...[١].

وذكر غير واحد من المفسرين أن قوله تعالى: ﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖ﴾، استئناف طُويَ قبله جملٌ كثيرةٌ مسارعةً إلى الإنباء بإنجاز الوعدِ الكريم[٢].

فحين بُشر زكريا عليه السلام بيحيى عليه السلام، طوى الله فترة طويلة من حياة يحيى عليه السلام، وانتقلت الآية نَقْلة واسعة بعدها، فجاء الخطاب ليحيى عليه السلام في القرآن بقول الله تعالى له: ﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖ﴾، ليكون يحيى عليه السلام هو الحامل لتلك الرسالة التي أشارت إليها الآيات السابقة، وليقوم بالدين من بعد والده زكريا عليه السلام. وأشار ابن عاشور رحمه الله في "تفسيره" إلى المناسبة بين الآيات السابقة وقوله تعالى: ﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖ﴾، التي تشير إلى بداية التكليف بقوله: «مقول قول محذوف، بقرينة أن هذا الكلام خطاب ليحيى، فلا محالة أنه صادر من قائل، ولا يناسب إلا أن يكون قولًا من الله تعالى، وهو انتقال من البشارة به إلى نبوءته. والأظهر أن هذا من إخبار القرآن للأمة لا من حكاية ما قيل لزكرياء. فهذا ابتداء ذكر فضائل يحيى. وطوي ما بين ذلك لعدم تعلق الغرض به. والسياق يدل عليه. والتقدير: قلنا يا يحيى خذ الكتاب»[٣].

وأشار أيضًا غير واحد من المفسرين بأن الأمر ليحيى عليه السلام بأخذ الكتاب قد جاء بعد بلوغه لسن الفهم؛ مما يربط بين الآيات السابقة واللاحقة، وأنّ هذا الأمر الإلهي جاء بعد تحقق البشارة في سياق متصل بالتكليف والتزكية، فأخذه الكتاب بقوة هو سبب مباشر لما تلاه من الصفات، فقال تعالى: ﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا ١٢ وَحَنَانٗا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةٗۖ وَكَانَ تَقِيّٗا ١٣ وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَيۡهِ وَلَمۡ يَكُن جَبَّارًا عَصِيّٗا ١٤ وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا ١٥﴾ [مريم ١٢- ١٥].

---

[١] تيسير الكريم الرحمن، ص ٤٩٠.

[٢] انظر: إرشاد العقل السليم لأبي السعود (٥/ ٢٥٩)، روح المعاني للألوسي (١٦/ ٥٢٠).

[٣] التحرير والتنوير (١٦/ ٧٥).

المبحث الثاني: الموضوعات في الآية والهدايات المستنبطة منها

المطلب الأول: دلالة "القوة" واستعمالها في الآية

- القوة لغةً واصطلاحًا:

قال تعالى: ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ١٢﴾ [مريم: ١٢].

عرفها أهل اللغة بقولهم: قال ابن فارس: «(قَوِيَ) الْقَافُ وَالْوَاوُ وَالْيَاءُ أَصْلَانِ مُتَبَايِنَانِ، يَدُلُّ أَحَدُهُمَا عَلَى شِدَّةٍ وَخِلَافِ ضَعْفٍ، وَالْآخَرُ عَلَى خِلَافِ هَذَا وَعَلَى قِلَّةِ خَيْرٍ. فَالْأَوَّلُ الْقُوَّةُ، وَالْقَوِيُّ: خِلَافُ الضَّعِيفِ. وَأَصْلُ ذَلِكَ مِنَ الْقُوَى، وَهِيَ جَمْعُ قُوَّةٍ مِنْ قُوَى الْحَبْلِ... وَالْأَصْلُ الْآخَرُ: الْقَوَاءُ: الْأَرْضُ لَا أَهْلَ بِهَا. وَيُقَالُ: أَقْوَتِ الدَّارُ: خَلَتْ. وَأَقْوَى الْقَوْمُ: صَارُوا بِالْقَوَاءِ وَالْقِيِّ. وَيَقُولُونَ: بَاتَ فُلَانٌ الْقَوَاءَ وَبَاتَ الْقَفْرَ، إِذَا بَاتَ عَلَى غَيْرِ طُعْمٍ. وَالْمُقْوِي: الرَّجُلُ الَّذِي لَا زَادَ مَعَهُ»[1].

وعرفها ابن سيده ﷀ بقوله: «الْقُوَّة: نقيض الضعْف. وَالْجمع: قوى، وقوى. وَقَوله تَعَالَى: {يَا يحيى خُذ الْكتاب بِقُوَّة} أَي: بجد وَعون من الله»[2].

وأمّا في الاصطلاح فعرفها الجرجاني ﷀ بقوله: «القوة: «هي تمكن الحيوان من الأفعال الشاقة، فقوى النفس النباتية تسمى: قوى طبيعية، وقوى النفس الحيوانية تسمى: قوى نفسانية، وقوى النفس الإنسانية تسمى: قوى عقلية. والقوى العقلية باعتبار إدراكاتها للكليات تسمى: القوة النظرية، وباعتبار استنباطها للصناعات الفكرية من أدلتها بالرأي تسمى: القوة العملية»[3].

وعرفها ابن عاشور ﷀ بقوله: «والقوة حقيقتها حالة في الجسم يتأتى له بها أن يعمل ما يشق عمله في المعتاد فتكون في الأعضاء الظاهرة مثل قوة اليدين على الصنع الشديد، والرجلين على المشي الطويل، والعينين على النظر للمرئيات الدقيقة. وتكون في

---

(١) مقاييس اللغة، ص ٧٥٥، مادة (قوي).

(٢) المحكم (٦/٤٥٩).

(٣) التعريفات، ص ١٧٩.

الأعضاء الباطنة مثل قوة الدماغ على التفكير الذي لا يستطيعه غالب الناس، وعلى حفظ ما يعجز عن حفظه غالب الناس ومنه قولهم: قوة العقل»(١).

والقوة في الكتاب العزيز تُفهم وتُفسر حسب السياق الواردة فيه وكذلك ما يرادفها من الألفاظ، وكل ذلك يدل على خلاف التساهل والضعف سواءٌ بالإفراط أو التفريط.

يقول الراغب الأصفهاني: «القُوَّةُ تستعمل تارة في معنى القدرة نحو قوله تعالى: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٍ﴾ [البقرة: ٦٣]، وتارة للتهيّؤ الموجود في الشيء، نحو أن يقال: النّوى بِالْقُوَّةِ نخل، أي: متهيّأ ومترشّح أن يكون منه ذلك. ويستعمل ذلك في البدن تارة، وفي القلب أخرى، وفي المعاون من خارج تارة، وفي القدرة الإلهيّة تارة. ففي البدن نحو قوله: ﴿وَقَالُواْ مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾[فصلت:١٥]، ﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ﴾ [الكهف: ٩٥]، فالقوّة هاهنا قوّة البدن بدلالة أنه رغب عن القوّة الخارجة، فقال: ﴿مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيۡرٌ﴾ [الكهف:٩٥]، وفي القلب نحو قوله: ﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ﴾ [مريم: ١٢]، أي: بقوّة قلب. وفي المعاون من خارج نحو قوله: ﴿لَوۡ أَنَّ لِي بِكُمۡ قُوَّةً﴾ [هود: ٨٠] قيل: معناه: من أتقوّى به من الجند، وما أتقوّى به من المال، ونحو قوله: ﴿قَالُواْ نَحۡنُ أُوْلُواْ قُوَّةٍ وَأُوْلُواْ بَأۡسٍ شَدِيدٍ﴾ [النمل: ٣٣]، وفي القدرة الإلهيّة نحو قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (٢١)﴾ [المجادلة: ٢١]، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا (٢٥)﴾ [الأحزاب: ٢٥] وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ (٥٨)﴾ [الذاريات: ٥٨] فعامّ فيما اختصّ الله تعالى به من القدرة وما جعله للخلق...»(٢).

وقال السمين الحلبي: «والقوة تستعمل تارةً في معنى القدرة، نحو: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٍ﴾ [البقرة: ٦٣] وقيل: بعزيمة وجد»(٣).

---

(١) التحرير والتنوير (٩/ ٩٩).

(٢) المفردات، ص ٦٩٣- ٦٩٤.

(٣) عمدة الحفاظ (٣/ ٣٥٩).

وبهذا يتبين أن القوة المذكورة في (أخذ الكتاب بقوة) في قوله تعالى: ﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ﴾، ليس المقصود بها قوة البدن وإنما قوة القلب، وقد فسرها أهل اللغة والمفسرين بعدة معانٍ –وسيأتي الحديث عنها بالتفصيل– هي: العلم بالكتاب، والحفظ له والعمل به، والجد، والمواظبة، والحرص، والاجتهاد.

المطلب الثاني: أخذ الكتاب بجد واجتهاد والهدايات المستنبطة من هذا المعنى

ذكر المفسرون عدة معاني في تفسير " القوة " في قوله تعالى: ﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ﴾ [مريم: ١٢].

فمن المعاني الواردة في معنى القوة في الآية: الجد، والاجتهاد، وطلب العون من الله تعالى، والحرص، والمواظبة، والعلم به، والحفظ له، والعمل به.

قال مجاهد: ﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا ١٢﴾، يعني: «بجد في طاعة الله عز وجل»[١]. ونقل الشوكاني عن مجاهد قوله: بقوة "أي بجد... واجتهاد[٢].

وفسرها السمرقندي بقوله: «قوله عز وجل: ﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ﴾، يعني: أوحى الله تعالى إليه أن: يا يَحْيى خُذِ الْكِتابَ بِقُوَّةٍ، يعني: بجد ومواظبة، {وَآتَيْناهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا}، يعني: أجرينا الحكم على لسانه في حال صغره، وذلك أنه مرّ بصبيان يلعبون، فقالوا له: تعال حتى نلعب. فقال لهم: ما للعب خلقنا. ويقال: {خُذِ الْكِتابَ بِقُوَّةٍ}، أي بجدّ وعون من الله تعالى، ويقال بكثرة الدرس»[٣].

وقال الرازي: «قوله: بقوة ليس المراد منه القدرة على الأخذ؛ لأن ذلك معلوم لكل أحد فيجب حمله على معنى يفيد المدح وهو الجد والصبر على القيام بأمر النبوة،

---

[١] تفسير مجاهد، ص ٤٥٤.

[٢] فتح القدير للشوكاني (٣/ ٤٠٣).

[٣] تفسير القرآن (٢/ ٣٢٠).

وحاصلها يرجع إلى حصول ملكة تقتضي سهولة الإقدام على المأمور به والإحجام عن المنهي عنه»[١].

وأضاف ابن كثير إلى هذه المعاني المذكورة "الحرص" بقوله: «﴿يَـٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَـٰبَ بِقُوَّةٍ﴾أي: تعلم الكتاب {بقوة} أي: بجد وحرص واجتهاد... أي خذ التوراة بقوة، أي: بجدّ واجتهاد، وذلك بتفهُّم المعنى أولًا حتى يفهمه على الوجه الصحيح، ثم يعمل به من جميع الجهات، فيعتقد عقائده، ويحل حلاله، ويحرم حرامه، ويتأدب بآدابه، ويتعظ بمواعظه، إلى غير ذلك من جهات العمل به»[٢].

ولا شك في أن هذه المعاني المذكورة هي من باب اختلاف التنوع لا اختلاف التضاد، ففي اللغة الجِدَّ (بالكسر: الاجتهاد في الأمر)، وَقد جَدّ به الأمر إذا اجتهد، وفلان جادٌّ مجتهِد... والجِدُّ (نَقِيضُ الهَزْل)[٣].

ووقفة تأمل مع هذه المعاني التي ذكرها المفسرون في هذه الآية الكريمة، فإن مدلول الجد والاجتهاد يتطلب الحرص والمواظبة وطلب العون من الله تعالى، وتفهُّم المعنى على الوجه الصحيح، والعمل به من جميع الجهات إلخ، ونجد أن في الآية دعوة واضحة لتحمل المسؤولية الملقاة على عاتق نبي الله يحيى عليه السلام في التمسك بالكتاب، والجد والاجتهاد في التلقي والعمل، وتُبرز كلمة "بقوة" في هذه الآية دلالة عميقة على طبيعة التكليف الإلهي ليحيى عليه السلام من خلال الإشارة إلى ضرورة التمسك الجاد بالرسالة الإلهية.

وفي هذا دعوة لجميع المكلفين بالتمسك بالكتاب، أيضًا أخذ العلم بقوة واجتهاد، وذلك بأن يسير المرء في هذه الحياة على هدى وعلم وبصيرة وفقه وتفهم لمعنى هذا العلم الشرعي على الوجه الصحيح، ويبادر بعمل دؤوب طموح، وجديَة، ويُطبق ما اشتمل عليه

(١) التفسير الكبير (٥١٦/٧).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٢١٦).

(٣) تاج العروس للزبيدي (٧/ ٤٧٦)، مادة (جدد).





هذا العلم من أحكام وآداب، فإن بركة العلم في العمل به، مستشعرًا قوله الله تعالى: ﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖ﴾ [مريم: ١٢]. وقوله: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ﴾[البقرة: ٦٣].

والقوة التي تتحدث عنها الآية ليست قوة بدن، وإنما قُوة قَلبٍ وعقيدة، بأنْ يأخذ المرء الكتاب بقوة، ويطلب العلم بِقوة، فيكون راسخًا في إيمانه ثابتًا في عقيدته، فالمسلم بحاجة إلى الثبات على دينه وخاصة في أوقات الفتن، وفشوّ الجهل، وقلة العلماء؛ إذ يكثر فيه التعرض للبدع والتأويلات الباطلة كل هذا يدعونا إلى التمسك بهذه القوة لِنصد بها سيل تلك الشبهات.

وأن يكون المرء صادقًا في أخذه للعلم فيمضي للخير بقوة، ويجد ويجتهد في التلقي والعمل، ويُبلغه بقوة، تلك القوة التي تضمنتها المعاني الجليلة التي أشارت إليها الآية الكريمة، وكما قال عليه الصلاة والسلام: «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير»[١].

أيضًا فيها إشارة إلى أن أخذه بجد واجتهاد يدعو إلى الالتزام والعمل الجاد بالكتاب، وعدم التراخي والضعف.

ولنا في رسول الله ﷺ أسوة حسنة، فقد كان يبادر إلى أخذه، ويسابق الملك في قراءته، فأمره الله ﷻ إذا جاءه الملك بالوحي أن يستمع له، وتكفل له أن يجمعه في صدره، وأن ييسره لأدائه على الوجه الذي ألقاه إليه، وأن يبينه له ويفسره ويوضحه[٢]. ومن هنا كان ﷺ جامع القرآن في قلبه الشريف وسيد الحفاظ في عصره المنيف. ومرجع المسلمين في كل ما يعنيهم من أمر القرآن وعلوم القرآن. وكان ﷺ يقرؤه على الناس على مكث كما أمره مولاه وكان يُحيي به الليل ويزين الصلاة. وكان جبريل يعارضه إياه في كل عام مرة. وعارضه إياه في العام الأخير مرتين[٣].

---

[١] أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب القدر، باب في الأمر بالقوة، وترك العجز، والاستعانة بالله، وتفويض المقادير لله، حديث رقم ٣٤ (٢٦٦٤)، ص ١٠٦٩.

[٢] انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٨/٢٧٨).

[٣] مناهل العرفان للزرقاني (١/ ١٦٨).





وكان ﷺ يحث الصحابة رضوان الله عليهم على تعلم القرآن وحفظه والتمسك به، وتعاهده، كذلك ما كان عليه سلفنا الصالح في العناية بالقرآن الكريم علمًا وتعلمًا وعملًا، وما امتازوا به من قوة اليقين بالله عز وجل، وقوة الإيمان بوعده ووعيده، وثوابه وعقابه، وهمتهم ونشاطهم في طلب العلم وأخذه بقوة، كافية لحمل النفس إلى التطلع الدائم لاقتفاء أثرهم والسير على طريقهم في كيفية أخذهم القرآن.

وقد كان السلف الصالح رضوان الله عليهم من الصحابة فمن بعدهم يعتنون كثيرًا بتفسير كلام الله جل وعلا وبفهم معانيه؛ لأنه هو الحجة على الخلق، ولأن التعبد وقع به وبتلاوته وبفهم معانيه وفي أنحاء كثيرة غير ذلك(١).

والنماذج في ذلك كثيرة جدًّا، واذكر منها على سبيل المثال لا الحصر:

يقول أبو عبد الرحمن السلمي: «حدثنا من كان يقرئنا من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم: أنهم كانوا يقترئون من رسول صلى الله عليه وسلم عشر آيات، فلا يأخذون في العشر الأخرى حتى يعلموا ما في هذه من العلم والعمل، قالوا: فعلمنا العلم والعمل»(٢)؛ ولهذا كانوا يبقون مدة في حفظ السورة(٣).

فقد كان كتاب الله في المحل الأول من عنايتهم رضوان الله عليهم، يتنافسون في استظهاره وحفظه، ويتسابقون إلى مُدارسته وتفهمه، ويتفاضلون فيما بينهم على مقدار ما يحفظون منه، وربما كانت قرة عين السيدة منهم أن يكون مهرها في زواجها سورة من القرآن يعلمها إياها زوجها، وكانوا يهجرون لذة النوم وراحة الهجود إيثارًا للذة القيام به في الليل والتلاوة له في الأسحار والصلاة به والناس نيام حتى لقد كان الذي يمر ببيوت الصحابة في غسق الدجى يسمع فيها دويا كدوي النحل بالقرآن وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يذكي فيهم روح هذه العناية بالتنزيل يبلغهم ما أنزل إليه من ربه(٤).

---

(١) شرح مقدمة التفسير لصالح آل الشيخ، ص ٢.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده حديث (٢٣٤٨٢) ٣٨/ ٤٦٦، وابن أبي شيبة في مسنده (٣/ ٤١٣).

(٣) شرح مقدمة التفسير لابن عثيمين، ص ٢٢.

(٤) مناهل العرفان للزرقاني (١/ ١٦٨).





وهذا نموذج لعالم كبير ملأ الدنيا علمًا وفضلًا، وهو الإمام ابن جرير الطبري وما ذكر في همته لإخراج تفسير يكون قدره ثلاثون ألف ورقة، ولضعف همم أصحابه اختصره في نحو ثلاثة آلاف ورقة[١]، فخرج لنا هذا السِّفر العظيم "جامع البيان عن تأويل آي القرآن"، وقد أخبر عن نفسه بأنها حدثته بفكرة هذا التفسير وهو صبي، واستخار الله تعالى في عمل كتاب التفسير وسأله العون على ما نواه ثلاث سنين قبل إخراجه[٢]، وقد أتم الإمام مشروعه وبلغ القاصي والداني في حياة الإمام.

لقد حث الإسلام على الجديةّ والانضباط، والمثابرة وتسخير الإمكانات المتاحة، والتغلب على الصعاب والعقبات. قيل لابن عباس كيف أصبت هذا العلم؟ قال: «بلسان سؤول، وقلب عقول»[٣].

وبعد وقوفنا على هذه المعاني التي حث الله نبيه يحيى عليه السلام وأمره بها في أخذه للكتاب، وكيف أنه امتثل أمر ربه، وأقبل على الكتاب، فحفظه وفهمه، نُدرك من خلالها أهمية الحديث عن هذه القوة، وكيف نتمسك بكتاب ربنا القويم، ونتمكن من الحصول على العلم الشرعي.

ولهذا كان لابد من بذل الأسباب المعينة على الحصول على هذه القوة، ولا يُنال ذلك إلا بعلو الهمة، فعلى المرء أن يبذل قُصارى جهده للوصول للأهداف العاليات، وأن يحسن التوكل على ربه ﷻ، مع الأخذ بالأسباب، ولا يبالغ في طلب الكمال.

قال ابن القيم وهو يحكي حال شيخه: «وحضرتُ شيخ الإسلام ابن تيمية مرةً صلى الفجر، ثم جلس يذكر الله تعالى إلى قريب من انتصاف النهار، ثم التفت إليَّ وقال: هذه غدوتي، ولو لم أتَغَدَّ هذا الغداء لسقطت قوَّتِي، أو كلامًا قريبًا من هذا»[٤].

---

[١] معجم الأدباء لياقوت الحموي (٦/ ٢٤٤٢).

[٢] المرجع السابق معجم (٦/ ٢٤٥٣).

[٣] فضائل الصحابة لأحمد بن حنبل (٢/ ٩٧٠).

[٤] الوابل الصيب، ص ١٠١.





الهدايات القرآنية:

١. أهمية الجد والاجتهاد والحرص والمواظبة في تعلم القرآن الكريم والعمل به.

٢. أهمية طلب العلم الشرعي ولا سيما العلوم التي تخدم كتاب الله تعالى، والاعتناء على أخذها بقوة.

٣. لابد من الإلحاح والتضرع في دعاء الله ﷻ وطلبه المعونة على حفظ كتابه وفهمه وتدبره علمًا وعملا وتعلمًا.

٤. الاقتداء بأنبياء الله تعالى في حرصهم وعنايتهم على أخذ القرآن بقوة.

٥. مظاهر عناية السلف بالاعتناء بكتاب الله تعالى وتفسيره وفهمه والعمل به.

٦. حفظ القرآن وتعلمه وتعليمه مسؤولية عظيمة، فعلى من تصدى لذلك من المعلمين والطلبة الاعتناء بهذا الشأن وأخذه بقوة.

٧. لابد من أخذ الكتاب بقوة، وأخذ العلم الشرعي بقوة، ونهج الطريق الصحيح الذي سار عليه السلف الصالح.

٨. أخذ الكتاب بقوة يتطلب الأخذ بما فيه من أوامر، وإتيانها على أفضل وجه، وأن ينأى المرء بنفسه عن المحرمات، ويجانب ما نهاه الله عنه.

٩. القوة في أخذ القرآن وفي طلب العلم الشرعي، هي قوة قلب لا قوة بطش وعنف.

١٠. أخذ الكتاب بقوة، والعلم الشرعي بقوة؛ يتطلب بذل النفس والصدق والإخلاص في تعلمه وتعليمه، فلا نأخذه بضعف وتراخٍ وتسويف، ولا نعلمه لغيرنا بضعف.

١١. إن أخذ الكتاب والعلم الشرعي بقوة يتطلب رسوخًا وثباتًا في العقيدة، وحذرًا من تحريف العلم عن مواضعه والإلحاد في آياته.

١٢. لابد من السير إلى الله بقوة في حفظ القرآن وتعلمه وفهمه، والدفاع عنه بالذب عنه، وصيانة معانيه من التحريف والرد على شبهاته.

١٣. القوة في الآية ليس معناها الغلو أو الزيادة في الدين ما ليس فيه.





المطلب الثالث: أخذ الكتاب بعزيمة وثبات والهدايات المستنبطة من هذا المعنى

من المعاني الواردة في معنى القوة في الآية: العزيمة والثبات.

قال الشوكاني: «بقوة أي: بجد وعزيمة واجتهاد»[1].

وقال ابن عاشور: «والأخذ: مستعار للتفهم والتدبر، كما يقال: أخذت العلم عن فلان؛ لأن المعتني بالشيء يشبه الآخذ. والقوة: المراد بها قوة معنوية، وهي العزيمة والثبات. والباء للملابسة، أي أخذًا ملابسًا للثبات على الكتاب، أي على العمل به وحمل الأمة على اتباعه، فقد أخذ الوهن يتطرق إلى الأمة اليهودية في العمل بدينها»[2].

وقد فرق ابن القيم بين الجدِّ والعزم بقوله: «والفرق بين الجدِّ والعزم أنَّ العزم صدق الإرادة واستجماعها، والجدُّ صدق العمل وبذل الجهد فيه، وقد أمر الله سبحانه بتلقِّي أوامره بالعزم والجدِّ، فقال: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ﴾ [البقرة: ٦٣]، وقال: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾ [الأعراف: ١٤٥]، وقال: ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ﴾ [مريم: ١٢] أي بجدٍّ واجتهادٍ وعزمٍ، لا كمن يأخذ ما أمرتُه بتردُّدٍ وفتورٍ»[3].

والعَزْمُ في اللغة: ما عَقدَ عليه القلبُ أنَّك فاعله، أو من أمرٍ تيقّنْتَهُ. وما لفلان عزيمة، أي: ما يثْبتُ على أمرٍ يَعْزُم/ يَعْزِم عليه، وما وجدنا له عَزْمًا، وإن رأيه لذو عزم[4].

وعُرف العزم بأنه: إرادة يقطع بها المريد رويته في الإقدام على الفعل أو الإحجام عنه ويختص بإرادة المريد لفعل نفسه؛ لأنه لا يجوز أن يعزم على فعل غيره[5].

---

[1] فتح القدير (٣/ ٤٠٣).
[2] التحرير والتنوير (١٦/ ٧٥).
[3] مدارج السالكين لابن القيم (١/ ٤٦٨).
[4] العين للخليل بن أحمد (١/٣٦٣).
[5] الفروق اللغوية للعسكري ص ١٢٤.





وعرفه ابن عاشور بقوله: «العزم إمضاء الرأي وعدم التردد بعد تبيين السداد»[١].

فيتضح من خلال هذا البيان أن أخذ الكتاب يحتاج إلى تصميم وعزيمة قوية مع حسن التوجه وإخلاص النية، ولا يطيق ذلك إلا من اختاره الله تعالى لأداء هذه المهمة.

وقد جاء الحث على العزم في مواضع كثيرة، من ذلك قول الله تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [آل عمران:١٥٩]، «أمر الله نبيهﷺ، إذا عزم على أمر أن يمضي فيه، ويستقيم على أمر الله، ويتوكل على الله»[٢].

قال الرازي عن العزم: «... لا بد في الإمامة والنبوة من قوة العزم والصبر على ضروب المحنة حتى يؤدي عن الله أمره ونهيه ولا تأخذه في الدين لومة لائم وسطوة جبار»[٣].

وقال ابن القيم: «إن الدين مداره على أصلين: العزمُ والثبات... وأصل الشكر صحة العزيمة، وأصل الصبر قوة الثبات، فمتى أُيّد العبد بعزيمة وثبات، فقد أُيد بالمعونة والتوفيق»[٤].

وقال في موضع آخر: «إِذا طلع نجم الهمة فِي ظلام ليل البطالة وَردفهُ قمر الْعَزِيمَة، أشرقت أَرض الْقلب بِنور رَبهَا، إِذا جن اللَّيْل تغالب النّوم والسهر، فالخوف والشوق فِي مقدم عَسْكَر الْيَقَظَة، والكسل والتواني فِي كَتِيبَة الْغَفْلَة، فَإِذا حمل الْعَزْم حمل على الميمنة وانهزمت جنود التَّفْرِيط، فما يطلع الفجْر إِلَّا وَقد قسمت السهْمَان وَبَردت الْغَنِيمَة لأَهْلهَا»[٥].

الهدايات:

- الشرائع تؤخذ بقوة وعزم وحزم.

---

[١] التحرير والتنوير (٤/ ١٩٠).

[٢] انظر: جامع البيان لابن جرير (١٩٢/٦).

[٣] التفسير الكبير (٤٩/٤).

[٤] عدة الصابرين (١/ ٢٠٩).

[٥] الفوائد، ص ٥١.





- أن العزم يدل على الخير وعدم التردد وهو من شيم الأنبياء والصالحين.
- أن أصحاب الهمم العالية تتجلى همتهم العالية في المثابرة والعزيمة والثبات وعدم التردد.
- أخذ الكتاب بقوة يتطلب عزيمة صادقة وهمة عالية.
- أخذ الكتاب بقوة يتطلب السعي بقوة واستفراغ الوسع وترك التكاسل والتسويف.
- بقوة العزم والعزيمة يصل المرء للمنزلة الرفيعة.
- إذا انضم الثبات إلى العزيمة أثمر كل مقام شريف وحال كامل[1].

المطلب الرابع: معنى قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا﴾ والهدايات المستنبطة من معنى الآية

قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا﴾، من المعاني التي ذكرت في معنى الحكم:
- الفهم والعقل واللبّ[2].
- أجرينا الحكم على لسانه في حال صغره[3].
- الأحكام والمعرفة بها، والحكمة [4].
- النُّبوَّة في صباه [5].
- العلم والفقه. و(الحُكْم): القضاء بالعدل أيضًا [6].

---

(1) طريق الهجرتين لابن القيم، ص ٢٦٦.

(2) انظر: تفسير يحي بن سلام (١/ ٢١٧)، جامع البيان لابن جرير (١٥/ ٤٧٤)، تفسير القرآن العزيز لابن زمنين (٣/ ٨٩)، البحر المحيط لأبي حيان (٢٤٥/٧).

(3) انظر: تفسير القرآن للسمرقندي (٢/ ٣٢٠)، المحرر الوجيز لابن عطية (٧/٤).

(4) انظر: النكت والعيون للماوردي (٣/ ٣٦٠)، المحرر الوجيز لابن عطية (٧/٤)، التفسير الكبير للرازي (٧ / ٥١٦)، التسهيل لابن جزي (١/ ٤٧٨).

(5) الوجيز للواحدي ص ٦٧٧، تفسير القرآن للسمعاني (٣/ ٢٨٢)، المحرر الوجيز لابن عطية (٧/٤)، التسهيل لابن جزي (١/ ٤٧٨)، البحر المحيط لأبي حيان (٢٤٥/٧).

(6) الوسيط للواحدي (٣/ ١٧٨).





– آداب الخدمة أو الفراسة الصادقة[١].

– الفهم والعلم والجد والعزم، والإقبال على الخير، والإكباب عليه، والاجتهاد فيه وهو صغير حدث السن[٢].

قال الشنقيطي: «وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: وآتيناه الحكم، أي: أعطيناه الحكم، وللعلماء في المراد بالحكم أقوال متقاربة، مرجعها إلى شيء واحد، وهو أن الله أعطاه الفهم في الكتاب، أي: إدراك ما فيه والعمل به في حال كونه صبيا...»، إلى أن قال: الذي يظهر لي هو أن الحكم يعلم النافع والعمل به، وذلك بفهم الكتاب السماوي فهما صحيحًا، والعمل به حقًّا، فإن هذا يشمل جميع أقوال العلماء في الآية الكريمة، وأصل معنى «الحكم» المنع، والعلم النافع، والعمل به يمنع الأقوال والأفعال من الخلل والفساد والنقصان»[٣].

فأعاد الشنقيطي غالب هذه الأقوال إلى الفهم والعمل.

{وصَبِيًّا}: يريد شابًّا لم يبلغ حد الكهول[٤]. قال ابن كثير: «وقد كان سنه إذ ذاك صغيرًا، فلهذا نوه بذكره، وبما أنعم به عليه وعلى والديه[٥].

يقول ابن عاشور: «وصبيًّا حال من الضمير المنصوب في وآتيناه، وهذا يقتضي أن الله أعطاه استقامة الفكر وإدراك الحقائق في حال الصبا على غير المعتاد، كما أعطى نبيه محمدًا ﷺ الاستقامة وإصابة الرأي في صباه. ويبعد أن يكون يحيى أعطي النبوءة وهو صبي؛ لأن النبوءة رتبة عظيمة فإنما تعطى عند بلوغ الأشد. واتفق العلماء

---

(١) البحر المحيط لأبي حيان (٧/٢٤٥).

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٥/ ٢١٦).

(٣) أضواء البيان (٤/ ١٧٤).

(٤) انظر: المحرر الوجيز لابن عطية (٤/٧).

(٥) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٢١٦).





على أن يحيى أعطي النبوءة قبل بلوغ الأربعين سنة بكثير. ولعل الله لما أراد أن يكون شهيدًا في مقتبل عمره باكره بالنبوءة»[1].

الهدايات:

- أكرم الله نبيه يحيى عليه السلام بالحكمة في حال صباه قبل بلوغه أسنان الرجال، وهذه منحة إلهية يهبها الله لمن يشاء من عباده.
- الاعتناء بالقرآن وفهمه وتعلمه والعمل به، يجني به المرء عظيم الفائدة.
- أهمية التربية الإيمانية منذ الصغر، ولنا في أنبياء الله عليهم الصلاة والسلام القدوة الحسنة في ذلك.
- على المربين الاعتناء بغرس حب القرآن والعلم الشرعي في نفوس الأطفال منذ الصغر.
- على الوالدين الاعتناء بأبنائهم منذ الصغر وذلك بتنشئتهم التنشئة الصالحة، والاعتناء بالبيئة التي ينشؤون فيها.
- على المعلمين استخدام الوسائل التعليمية النافعة التي تعين على الفهم والعلم، والتدرج بها في التعليم مع الترغيب والتحفيز.
- الفهم الصحيح للدين يعين على التمييز بين الحق والباطل.

[1] التحرير والتنوير (١٦/ ١٧).





الخاتمة

أحمد الله سبحانه وأثني عليه بما هو أهله، وأشكره على فضائله وإنعامه جل شأنه، وفي ختام هذا البحث أوجز نتائجه فيما يأتي:

أهم نتائج هذا البحث:

١. القوة المذكورة في الآية هي قوة القلب لا قوة البطش والعنف.

٢. أمر الله لأنبيائه عليهم السلام بأخذ الكتاب بقوة، هو أمر لنا كذلك بحفظ القرآن وفهمه وتدبره والعمل بما فيه.

٣. بيان أهمية العلم الشرعي ووجوب التمسك به.

٤. بيان أهمية الجد والاجتهاد والعزم والثبات في طلب العلم والعمل به.

٥. ضرورة غرس حب القرآن والعلم الشرعي في نفوس الناشئة منذ الصغر.

٦. الهداية العمليّة من الآية للمربين وطلبة العلم.

٧. أثر الأخذ بقوة في الثبات على الدين ومواجهة الانحراف.

٨. أثر هذه الآية في بناء الشخصية الإيمانية المتوازنة.

التوصيات:

١. استحضار النماذج القرآنية في التربية الإيمانية والتعليم.

٢. توصية الجامعات والجهات المعنية في وزارة التربية والتعليم، بضرورة تعزيز القيم الإيمانيّة والتربويّة، وترسيخ مفاهيم الجد والاجتهاد والعزيمة والإصرار؛ وذلك من خلال تفعيل البرامج التعليمية والمبادرات التي تُعنى بهذا الجانب.

فهرس المصادر والمراجع

- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: لمحمد الأمين الشنقيطي، ط. الثانية، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٢م، دار الكتب العربية، بيروت – لبنان.

- البحر المحيط: لأبي حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان النحوي الأندلسي، تحقيق: صدقي محمد جميل، وآخرون ط. ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م، دار الفكر– بيروت.

- تاج العروس من جواهر القاموس: لمحمّد مرتضى الحسيني الزَّبيدي، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م، وزارة الإرشاد والأنباء – الكويت.

- التحرير والتنوير المعروف بتفسير ابن عاشور، لمحمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر– تونس، ١٩٨٤هـ.

- التسهيل لعلوم التنزيل: لأبي القاسم، محمد بن أحمد ابن جزي، تحقيق: عبد الله الخالدي، ط. الأولى ١٤١٦هـ، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم– بيروت.

- التعريفات: لعلي بن محمد بن علي الجرجاني، الأولى ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، دار الكتب العلمية بيروت– لبنان.

- تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، لأبي السعود العمادي، دار إحياء التراث العربي– بيروت.

- تفسير القرآن: لأبي المظفر، منصور بن محمد السمعاني التميمي، تحقيق: ياسر بن إبراهيم، ط. الأولى، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م، دار الوطن– الرياض.

- تفسير القرآن: لأبي الليث نصر بن محمد بن أحمد السمرقندي، تحقيق: علي محمد معوض، وآخرون، دار الكتب العلمية، بيروت، ط. الأولى، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م.

- تفسير القرآن العزيز: لأبي أبو عبد الله محمد ابن أبي زَمَنِين، تحقيق: أبي عبد الله حسين بن عكاشة، محمد بن مصطفى الكنز، ط. الأولى، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م.





- تفسير القرآن العظيم: لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة، ط. الأولى، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م، دار طيبة– الرياض.
- التفسير الكبير: للفخر الرازي، ط. الرابعة، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م، دار إحياء التراث، بيروت– لبنان.
- التفسير القيم = تفسير القرآن الكريم: لمحمد بن أبي بكر بن ابن قيم الجوزية، ط. الأولى، ١٤١٠هـ، دار ومكتبة الهلال– بيروت.
- تفسير مجاهد: لأبي الحجاج مجاهد بن جبر، تحقيق: محمد عبد السلام أبو النيل، ط. الأولى، ١٤١٠هـ/ ١٩٨٩م، دار الفكر الإسلامي الحديثة– مصر.
- تفسير مقاتل بن سليمان، لأبي الحسن مقاتل بن سليمان، ت: عبد الله محمود شحاته، دار إحياء التراث، بيروت، ط ١، ١٤٢٣هـ.
- تفسير يحيى بن سلام: ليحيى بن سلام: تحقيق: هند شلبي، ط. الأولى، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م، دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان.
- تهذيب اللغة: لمحمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، تحقيق: محمد عوض مرعب، ط. الأولى، ٢٠٠١م، دار إحياء التراث العربي– بيروت.
- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنّان، لعبد الرحمن بن ناصر السَّعدي، ت: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط ١، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.
- الجامع لأحكام القرآن، لأبي عبد الله محمد بن أحمد القرطبي، ت: عبد الرزاق المهدي دار الكتاب العربي، بيروت– لبنان، ط ٣، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.
- جامع البيان عن تأويل آي القرآن، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، ت: عبد الله بن عبد الحسن التركي، دار عالم الكتب، ط ١، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني: لمحمود الألوسي، تحقيق: محمد الأمد، عمر السلامي، ط. الأولى، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م، دار إحياء التراث العربي، بيروت– لبنان.





- زاد المسير في علم التفسير: لأبي الفرج عبد الرحمن بن علي الجوزي، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، ط. الأولى/ ١٤٢٢هـ، دار الكتاب العربي، بيروت.
- شرح مقدمة التفسير شيخ الإسلام ابن تيمية: لمحمد بن صالح العثيمين، الأولى، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م، دار الوطن- الرياض.
- شرح مقدمة التفسير لابن تيمية: لصالح بن عبد العزيز آل الشيخ.
- صحيح مسلم: لأبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م، بيت الأفكار الدولية.
- عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين: لأبي عبد الله محمد ابن قيم الجوزية، تحقيق: إسماعيل بن غازي مرحبا، الطبعة: الرابعة، ١٤٤٠هـ - ٢٠١٩م، دار عطاءات العلم، الرياض.
- طريق الهجرتين وباب السعادتين: لمحمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، ط. الثانية، ١٣٩٤هـ، الدار السلفية، القاهرة، مصر.
- عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ: لأبي العباس، أحمد بن يوسف المعروف بالسمين الحلبي، تحقيق: محمد باسل عيون السود الطبعة: الأولى، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م، دار الكتب العلمية.
- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير: لمحمد بن علي الشوكاني، دار الكتب العلمية- بيروت، ط ١، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م.
- الفروق اللغوية: لأبي هلال الحسن بن عبد الله العسكري، تحقيق: محمد إبراهيم سليم، ١٤٣١هـ، دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة - مصر.
- فضائل الصحابة: لأبي عبد الله أحمد بن حنبل، تحقيق: وصي الله محمد عباس، ط. الأولى، ١٤٠٣هـ، مؤسسة الرسالة- بيروت.
- الفوائد: لمحمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، ط. الثانية، ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م، دار الكتب العلمية- بيروت.





- مدارج السالكين بين منازل "إياك نعبد وإياك نستعين": لأبي عبد الله محمد ابن قيم الجوزية تحقيق: محمد المعتصم، ط. الرابعة، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م، دار الكتاب العربي، بيروت- لبنان.

- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزي، لابن عطية الأندلسي المحاربي، ت: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية- بيروت ط ١، ١٤٢٢هـ.

- المحكم والمحيط الأعظم: لأبي الحسن علي بن إسماعيل بن سيده، تحقيق عبد الحميد هنداوي، ط. الأولى، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م، دار الكتب العلمية- بيروت.

- مختار الصحاح: لأبي عبد الله محمد بن أبي بكر الرازي، تحقيق: يوسف الشيخ محمد، ط. الخامسة، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م، المكتبة العصرية - الدار النموذجية، بيروت - صيدا.

- مسند ابن أبي شيبة: لأبي بكر بن أبي شيبة، تحقيق: عادل بن يوسف العزازي وآخرون، ط. الأولى، ١٩٩٧م، دار الوطن- الرياض.

- مسند الإمام أحمد بن حنبل: لأحمد بن حنبل، تحقيق: عادل مرشد، وآخرون، ط. الأولى، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م، مؤسسة الرسالة.

- معجم الأدباء = إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب: لياقوت الحموي الرومي، تحقيق: إحسان عباس، ط. الأولى، ١٩٩٣م، ط. الثانية، دار الغرب الإسلامي- بيروت.

- المفردات في غريب القرآن: لأبي القاسم الحسين بن محمد الراغب الأصفهاني، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، ط. الأولى، ١٤١٢هـ، دار القلم، الدار الشامية - دمشق بيروت.

- مقاييس اللغة: لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م، دار الحديث- القاهرة.

- مناهل العرفان في علوم القرآن: لمحمد عبد العظيم الزرقاني، ط. الأولى ، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م، دار الفكر، بيروت- لبنان.





- الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: لأبي الحسن علي بن أحمد الواحدي تحقيق: صفوان عدنان داوودي، ط. الأولى، ١٤١٥هـ، دار القلم، الدار الشامية- دمشق، بيروت.
- الوسيط في تفسير القرآن المجيد: لأبي الحسن علي بن أحمد الواحدي، النيسابوري، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، وآخرون، الطبعة: الأولى، ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان.
- الوابل الصيب من الكلم الطيب: لابن قيم الجوزية، ط. الأولى، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م، المكتب الإسلامي- بيروت.
- النكت والعيون: لأبي الحسن علي بن محمد الماوردي، تحقيق: السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان.



